الرصيد في النص الأدبي.

يلجأ النص الأدبي إلى توظيف مجموعة من العناصر الخارج نصية والمواضعات والاتفاقات التي تكون سابقة عليه، والتي يستطيع بفضلها أن يخلق وضعية سياقية مشتركة بينه وبين القارئ، ويقيم الفعل التواصلي. وهذا ما يسميه أيزر "برصيد النص"[*] (le répertoire du texte). وهو« الحيز المألوف داخل النص، وقد يكون... على شكل إشارات لأعمال أسبق، أو إلى معايير اجتماعية وتاريخية، أو إلى مجمل الثقافة التي نشأ النص منها..»[1]، والتي تحيلنا على الواقع الخارجي للنص أو أفقه المرجعي.

غير أن النص لا ينقل هذه العناصر المنتقاة كما هي، وتكون مجرد نسخة طبق الأصل، بل نجدها دائماً في حالة تحوّل واختزال، وتشويه، إنها تُنزَع من سياقاتها الاجتماعية والتاريخية، وتدخل في سياق نصي جديد، بحيث تكتسب أبعاداً دلالية جديدة. ولكنها تستمر مع ذلك في إثارة أصول هذه العناصر، وتظل الصلات القديمة حاضرة كخلفية تساهم في توليد الدلالات الجديدة. إذ إن« الحيّز المألوف ممتع لا لكونه مألوفاً بل لأنه يقود إلى اتجاه غير مألوف... وهذا الوضع المبهم هو الذي يضفي على النص قيمته الدينامية الجمالية »[2]. ويؤسس للفعل التواصلي بين النص والواقع من جهة والنص والقارئ من جهة أخرى.

ويعود أيزر إلى البحث التداولي ونظرية أفعال الكلام عند أوستين[3]، وينتقد رأيه في استبعاده اللغة الأدبية من تحليله على أساس أنها عقيمة ولا تؤدي إلى أفعال حقيقية، فهي تفتقر إلى الشروط اللازمة للفعل اللغوي الناجح. ولكن حسبه« فاللغة الروائية لها ما للفعل غير التعبيري من سمات أساسية، فهي تتصل بالأعراف التي تحملها معها، وتجر في أعقابها ثوابت تتخذ شكل

---

[*] تجدر الإشارة إلى أن هذا المفهوم تُرجم بمصطلح "السجل"(يراجع: ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص 153). بينما يستعمل رعد عبد الجليل جواد مصطلح "الذخيرة" وهو قليل الاستعمال ويحدده بقوله:«... إن الذخيرة لها وظيفة مزدوجة في نموذج أيزر إنها تعيد تشكيل البرمجة المألوفة لتشكيل خلفية لإجراءات الاتصال وتوفر إطار عمل عاماً يتم من خلاله تنظيم الرسالة أو معنى النص »(روبرت هولب، نظرية الاستقبال، تر: عبد الجليل جواد، ص 150).

[1] ـ فولفجانج إيسّر، فعل القراءة، ص 75.

[2] ـ المرجع نفسه، ص 76.

[3] ـ يقول أوستين في هذا الصدد:" لا يمكن أن يكون الفعل الإنشائي (الإنجازي) ناجحاً تاماً دون أن يحدث تأثيراً على المخاطب (المتلقي)..." وفعل الكلام وحدة أساسية للتواصل (voir. J. Austin, quand dire c'est faire, ed : Seuil, Paris 1970, p 124).

استراتيجيات تساعد على توجيه القارئ لفهم عمليات الانتقاء الكامنة وراء النص، ولها سمة "الأداء" في أنها تجعل القارئ يستنبط القوانين التي تحكم هذا الانتقاء باعتباره المعنى الفعلي للنص. وبتنظيمها الأفقي لمختلف الأعراف وإحباطها من التوقعات الثابتة يصبح لها أثر غير تعبيري، وفعالية هذا الأثر تثير الانتباه، بل توجّه موقف القارئ من النص وتثير رد فعله إزاءه...»[4]. ويصبح تدخله أمراً حيوياً لاكتمال النص، حيث يقوم بصياغة المدلولات ويعِدّ لها بصورة مستمرة ويجمع المعنى معنى آخر في عملية تشبه كرات الثلج.

ويرى "إيزر" أن النص لا يتموقع بالنسبة إلى واقعه الخارجي الخام، بل يتموقع بالنسبة إلى الأنساق الدلالية السائدة في عصره باعتبارها نماذج فكرية لفهم وتأويل هذا الواقع. فكل حقبة لها نسقها الفكري ونسقها الاجتماعي، ويؤدي كل نسق إلى تثبيت بعض التوقعات وتتخذ صبغة المعيارية، المستمرة. وتعتبر تفسيراً اختزالياً وانتقائياً لتجربة العالم، وبالتالي« ينبغي أن يفهم النص بوصفه صدى للمنظومات الفكرية التي اختارها وجسّدها في رصيده الخاص »[5].

وتظهر في كل نسق مجموعة من الإمكانات الدلالية السائدة في مقابل الإمكانات الدلالية الأخرى التي يقصيها النسق وينفيها. ويعمل النص الأدبي على إظهار ما تعطّله وتنفيه هذه الأنساق السائدة،« ففي الرواية والمسرح في القرن الثامن عشر كان هناك انشغال مكثف بالتساؤل عن الأخلاقيات. وكان أدب القرن الثامن عشر يعوض أوجه الخلل في نسق الفكر السائد في عصره. ولما كان مناخ العلاقات الإنسانية غائباً عن النسق، فقد أحياه الأدب وألقى عليه الضوء. وقد يكون حلول الأدب محل الاحتمالات التي يستبعدها النسق السائد هو السبب في اعتبار "القصص" في نظر كثير من الناس نقيض "الواقع" وهو في الحقيقة ليس نقيضاً، بل مكمّلاً له »[6]. وهذه العلاقة التي يقيمها النص الأدبي مع الأنساق الدلالية السائدة في عصره سوف تحدد

---

[4] ـ فولفجانج إيسّر، فعل القراءة، ص 68.

[5] ـ روبرت هولب، نظرية التلقي، ص 139.

[6] ـ فولفجانج إيسّر، فعل القراءة، ص 79.

* تقترب فكرة " رصيد النص " عند إيزر من فكرة " أفق التوقعات " عند روبرت ياوس. ورصيد النص هي التسمية التي أطلقها إيزر على ما يسمى بالمواضعات (أو الأشياء المتعارف عليها في مجال الأدب.."(حامد أبو أحمد، الخطاب والقارئ، نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة، مؤسسة اليمامة الصحفية، كتاب الرياض، ع 30، السعودية، يونيو 1996، ص 143). ويشير روبرت هولب إلى تقارب إيزر في طرحه لفكرة " النسق السائد " وجماليات التلقي عند

الرصيد* النصي بكيفية أساسية، غير أن النصوص الأدبية، على عكس الأنساق السائدة في كل عصر لا تكشف بكيفية جلية عن أسباب انتقاءاتها الخاصة لعناصر الرصيد النصي، بل تترك للقارئ مهمة الكشف عنها، والمشاركة في عملية بناء معنى العمل، وبواسطة هذه السيرورة يتم التواصل بين النص والقارئ.

هكذا،« يحضر السياق... كأداة إجرائية يمكنها أن توسّع من دائرة فهم النص الأدبي وتأويله وإخراجه إلى أفق أوسع وتكثف أسئلة الكتابة وشروط التواصل، وبناء عليه تضمن انسجامه والتواصل معه، بحيث لا نبقى في حدود خلق علاقة محدودة مع الموضوع، بل نتجاوز ذلك إلى الرغبة العميقة في استكناه كل الأطراف المساهمة في عملية الإبداع والتلقي...»[7]. وبالتالي يشكل الرصيد بنية تنظيمية للمعنى لا بد من إكمالها من خلال فعل القراءة.

ياوس في مقولة "أفق الانتظار". وسيأتي الحديث عنه في الفصل الثالث من البحث.(يراجع: روبرت هولب، نظرية التلقي، ص 140).

[7]- علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2000، ص 18.